الآراء الــواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

على هامش الصراحة

مقدمة في أسماء المحال والمهن

إحسان شمران الياسري

الاسم هو عنوان الشيء، والدال عليه، ومكنون إرادة من اختارهُ.. وتذهب الناس إلى الأسماء التي تُشعرهم بالأمن الروحي، والإيمـان، والبهجة او الـوفـاء.. فتختار أسماء الجلالة المقدسة، أو أسماء الرسل الاكـارم، أو الأولياء والصحابة.. فيما يختار آخـرون أسماء مدنهم، أو مدن مقدسة، أو أسماء عشائرهم. ويختار آخـرون أسماءهم المجردة أو الثنائية أو الثلاثية وألقابهم، أو ما يُكنّون به. ويختار البعض أسماء المهن أو خصائص هذه المهن، أو منجزاتها.. وفي كل ذلك سياق معقول ومقبول.. فَأن تقول: (جامع الرسول الاعظم (ص))، أو (حسينية آل البيت (ع)) أو (مدرسة الارتقاء والتقدم) أو (مفروشات البيت الأنيق) أو (مطعم كباب الأخوين) أو (دجاج بالتنور السماوة) أو (مقهى الثقة) أو (معرض كهربائيات الأمـانـة) أو (محل حدادة ابن الحجي) و(شركة نقليات الوصول الآمن)، كلها أسماء تذهب إلى المحتوى وتطمئن من الرابطة بين الاسم والمدلول.

أما تلك التي تحمل أسماء تثير فيك التساؤل عن دواعي اختيار الاسم مع المسمى، فهي كثيرة، وهي الشائعة في حياتنا.. والأكثر شيوعاً هو اختيار أسماء ذات معان روحية أو دينية أو مقدسة في التعريف بمحال أو مهن لا صلة لها بالتقديس، أو إن النظرة الأولى لا تفي الربط بينهما.. مثلاً، وأعتذر ابتداءً عن إدراجها إلا لضرورة هذا المقال، يكتبون (محل حدادة المصطفى، محل أعـلاف الباقر، معمل دباغة السجّاد، محل تجارة الفاروق)، كما يختارون أسماء للمحال لا تدل على معناها أو تخصصها.. فيقولون (مطعم الدرب الأبيض)، أو (مطعم حجي زبـالـة)، أو (فندق الشياطين النائمة).. الخ. وهناك محل شربت مشهور في بغداد بأسم (شربت حجي زبالة)

وهناك أسماء غريبة أو ذات مدلولات أكبر من المطلوب على نحو(محل النهضة العربية).. أو (مرطبات القدس السليبة)، أو (أقمشة ثورة الزنج).. ولم يتركنا الناس في هذه الأحوال، بل بـدأت استعارات الأسماء الأجنبية تغزو المسميات.. بعضها استخدام لأسماء المواليد، وبعضها لأسماء المحال والمدن، وكأن موروثنا وبلادنا وأسلافنا، ليس فيهم غنى من الأسماء الجميلة أو المعبّرة أو الممكنة..

فهناك (محل تسجيلات تورنتو)، واعتقد إنها مدينة في كندا، وآخر لبيع الأحذية باسم (محل أحذية اوكلاهوما).

فلو أن كلّاً منا ترك الأسماء الشائعة للأنبياء والأولياء والمدن والأنـهـار والأسـلاف، وذهبنا إلى الأسـمـاء الغريبة وغير الممكنة، لوصلنا بعد ربع قرن إلى أسماء لا يعلم بها إلا الله.. فقد يكون اسم شيخ جامع محلتنا (قسطنطين فريدريكو عبد الزهرة)، واسم زوج حفيدتي (كارل ماركس شلتاغ)، وابن حفيدة محافظ (هانوفرتو) (توماس ساركوزي اوليانوف طهماز)، إذ إن المحافظة أعلاه تم استبدال اسمها ثلاث مرات.. في المرة الأولى أسموها (واسطو) والثانية (واسطوهانو) وفي الثالثة، أسموها (هانوفر) ثم أضافوا لها المقطع (تو) حيث إن صديقة ابن المحافظ من مدينة (تورنتو)..

وقد اعترضت جارتنا الشابة الجميلة عندما ناديتها باسمها المكتوب بالوثائق الرسمية (زهــره)، وطلبت ان أناديها (أزهــار)، باعتبار ان الاول شعبي والثاني (حداثي)، ولم تدرك أختنا العزيزة ان اسم (زهرة) يكفي جدا جدا جمالا ومدلولا.. فهي زهره ولا فخر.

فأسماء من شاكلة (محمد وعلي وعمر وحسن وفاطمة وحسين وعائشة وصادق وأحمد وزهرة ..) أسماء ليس أجمل منها إلا التي تقترن بأسماء الجلالة (عبد الله وعبد الرحمن..).. وكذا أسماء المدن العراقية والاسلامية.. فلماذا تتعقد الامور من أجل التفاخر بالتفاهات؟

يقترح كاتب هـذه السطور أن تكون ثمة مراجعة شعبية ورسمية لأسس تسجيل أسماء المحال، بما يضمن المعاصرة من جهة، والعراقة والأصالة من جهة ثانية.

ihsanshamran@yahoo.com

ما بعد ماركس.. ما بعد الماركسية

غـــرامشـــي..لــوكـــاش

سعد محمد رحيم

ولـد غرامشي (٨٩١ . ١٩٣٧) في آليس في جزيرة سردينيا، ودرس الآداب بجامعة تورينو.. بدأ نشاطه السياسي مبكراً، وانضم إلى الحركات العمالية الاشتراكية، وتحديداً للحزب الاشتراكي الإيطالي. وشارك في الكفاح السياسي، وكتب مقالات عن مجمل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الإيطالية، لاسيما عن ظروف الطبقة العاملة الإيطالية. أفصح منذ يفاعته عن موهبة في الإبداع الفكري والتنظيم السياسي والقيادة الحزبية والجماهيرية.. مجّد الثورة الروسية وعرّف بها وبقادتها. واسترعى انتباه لينين بتقريره الذي قدمه إلى المجلس الوطني للحزب الاشتراكي الإيطالي بعنوان (من أجل تجديد الحزب الاشتراكي). وقد دعم لينين بقوة هذا التقرير في أثناء انعقاد المؤتمر الثاني للأممية الثالثة في موسكو صيف ١٩٢٠.. انتقد غرامشي ممارسات وسياسات الحزب الاشتراكي حيث رأى فيه لا تجمعا حضريا بل حشدا قبليا، لا جسما متكاملا بل تجمع أشخاص. ولذا بادر إلى تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي مع رفاقه الذين يشاركونه الهموم والاتجـاه.. وقف ضد الفاشية الصاعدة، واُعتقل بأمر من موسوليني، حيث قضى في السجن قرابة العشر سنوات، وهناك كتب أهم دراساته التي عُرفت بدفاترٍ السجن. وتوفي بعد فترة قصيرة جداً من إطلاق سراحه في عامٍ ١٩٣٧.

> شهد النصف الأول من القرن العشرين انتعاشاً لافتاً في حقل التنظير الاشتراكي الماركسي. وظهر مفكرون تركوا أعظم الأثر في وعي أجيالهم. وكانت لهم أدوارهم في النضال السياسي، إلى جانب إبداعهم الفكري والفلسفي. وما ميّز نتاج بعضهم هو أنهم لم يركنوا إلى التفسيرات الدوغمائية الرسمية للماركسية، بل حاولوا أن يستكشفوا في مساحات بكر ويؤسسوا لمنظوراتهم وأجهزتهم المفاهيمية ويجتهدوا، لا في التفسير وحده، وإنما في النقد حتى ولو طال رموزاً وإيقونات كان المساس بها من المحرّمات. وهؤلاء طوّروا النظرية واقترحوا ستراتيجيات للتطبيق بما يتلاءم ومتغيرات العصر المادية والفكرية. وبهذا الصدد، لعل أنطونيو غرامشي وجورج لوكاش، كانا أكثر أولئك المفكرين، في ضمن الحلقات السياسية الماركسية الفاعلة، أهمية في تلك الحقبة، وإثارة للجدل.

كان ماركسياً مخلصاً، لكنه رفض عبادة ماركس كمعصوم من الخطأ، فماركس من وجهة نظره، كما قال في عام ١٩١٨ "ليس مسيحاً خلّف وراءه سلسلة من الحكايات ذات المغزى الأخلاقي التي تحمل ملزمات صريحة وقـواعد غير قابلة للتغيير على الإطلاق، خارجة عن مقولات الزمن والفضاء. إن الملزم الصريح والوحيد، والقاعدة الفريدة هي؛ يا عمّال العالم اتحدوا". وما عدا ذلك تفاصيل قابلة للاجتهاد والنقاش العلمي.

غرامشي

جورج لوكاش

كتب غرامشي بألمعية وأصـالـة عن الحـزب الثوري ووظيفته، وعن النقابة ودورها، وعن مجالس المصانع، وأكـد علـى العمل الـثـوري المنظـم والـواعـي منـددا بالإصلاحيين.. وهو صاحب فلسفة البراكسس: "النشاط العملي والنقدي . الممارسة الإنسانية والمحسوسة . وغرامشي يؤكد استقلالية البراكسس إزاء الفلسفات الأخـرى. إنها ممارسة ونظرية في آن معاً ولهذا فهي فلسفة سياسية".

ولغرامشي تقسيمه الخاص للنظرية الماركسية فهي تتكون، على وفق رؤيته، من الاقتصاد السياسي والعلم السياسي والفلسفة. وفي أثناء بحثه عن المبادئ الموحّدة في علاقات الإنسان بالمادة (نتاج البراكسس السابق) وجد أن "المبدأ الموحِّد من وجهة النظر الاقتصادية هو: القيمة. ومن وجهة النظر السياسية: الدولة. وأما من وجهة النظر الفلسفية فهو العلاقة بين إرادة الإنسان وبين الأوضاع والمواقف التي ينبغي له تجاوزها. وهذا المبدأ الأخير يؤلف بين وجهتي النظر السابقتين لأنه يتيح الانتقال من المستوى الاقتصادي إلى المستوى الخلقي والسياسي. إنه البراكسس". ووجد غرامشي الـتاريخ في عـالم الأفـكـار، ليست الأفكار كتجريدات خيالية؛ "كان جوهر هذه الأفكار يكمن في الاقتصاد، وفي النشاط العملي، وفي أنظمة وعلاقات الإنتاج والتبادل. وهـذا جعله يتقاطع مع القائلين بالحتمية الميكانيكية، ليعوِّل على الإرادة الإنسانية والعمل الإنساني، باعتبار التاريخ صناعة بشرية. "كانت الماركسية بالنسبة إليه فلسفة تطبيق عملي، واعتقاد بأنه يمكن إنجاز هدف تحرير البروليتاريا من خلال النشاط السياسي الطوعي للبروليتاريا نفسها، أو بـالأحـرى عن طريق الجدلية المستمرة التقدم بين البروليتاريا وطليعتها ذات الوعي الطبقي".

نظّر غرامشي للتحالف بين البروليتاريا والفلاحين، بين العمال الصناعيين والزراعيين. ومن يقوم بتوطيد مثل هذا التحالف هم الطليعة المثقفة. وفي أفق هذه النظرة لطبيعة وكيفية التحالف أسس غرامشي لمفهوم (الكتلة التاريخية) حيث يشكّل المثقفون "الاسمنت العضوي الـذي يربط البنية الاجتماعية بالبنية الفوقية ويتيح تكوين كتلة تاريخية".

أكد تثقيف البروليتاريا، ومن خلاله دور الوعي والثقافة في التاريخ، حتى أن الثقافة يمكن أن تطوي المراحل وتسرّع حركة التاريخ.. يقول، وهو تحت تأثير انبهاره بالثورة الروسية البلشفية؛ "البروليتاريا الروسية المتعلمة اشتراكياً سـوف تـبدأ تـاريخها من المرحلة القصوى للإنتاج التي وصلتها إنكلترا اليوم. وإنْ عليها أن تبدأ، فإنها ستبدأ انطلاقاً مما تحقق حتى الآن في الأمكنة الأخرى. ومن هذا المستوى سوفٍ تصل إلى النضج الاقتصادي الذي يعتبره ماركس شرطاً للجماعية. إن الثوريين سيخلقون بأنفسهم الشروط الضرورية للتحقيق الكامل والشامل لفكرتهم. وسيخلقون هذه الشروط بأسرع مما تفعل الرأسمالية".

عبّرت هذه الثقة المفرطة بالبروليتاريا الروسية عن روح الانفعال الثوري التي كانت سائدة وقتئذ، ولم تكن البيروقراطية قد تحكمت تماماً بمقاليد السلطةٍ بعد. كان ذلك طوباوية سيتنبه إلى واقعيتها لاحقاً.

اعترض غرامشي على دعـوات الفوضويين بتحطيم مؤسسة الـدولـة. وعبر استيعابه للشروط التاريخية للزمن الذي عاشه أكد ضرورة تشييد دولة العمال على أنقاض دولة البرجوازية "فبالرغم من أن حدود التنافس الطبقي والصراع الطبقي تكون قد تغيرت في ديكتاتورية البروليتاريا، فإن التنافس يبقى وكذلك الطبقات. وعلى دولـة العمال أن تحل المشاكل نفسها التي تحلها الدولة البرجوازية، وهي تحديداً: الدفاع الداخلي والخارجي. وسيكون منِ الأمـورِ الكارثية أن تتصرف وكـأن هذه المشاكل قد حُلّت فعلاً".

استحدث غرامشي مفاهيم لم تكن مطروقة في حقل الفكر الماركسي، مثل مفهوم الهيمنة الثقافية التي تعني أن الطبقة البرجوازية تهيمن على المجتمع لا بامتلاكها وسائل الإنـتـاج وإدارتـهـا والتحكم بمؤسسات الدولة وحسب، وإنما من طريق فرض تصوراتها وأفكارها على المجتمع أيضاً، إلى الحد الذي تستدرج معه الطبقة العاملة لتبني تلكم التصورات والأفكار، والتي تغدو كما لو أنها تصورات وأفكار المجتمع برمته. كما اجترح مصطلحي/ مفهومي (المثقف التقليدي والمثقف العضوي) والأول هو من ينفصل عن هموم المجتمع. أو هو من يعيد الترويج لأفكار قارّة، المرة تلو المرة، مثل المعلمين ورجال الدين. فيما الثاني هو من يرتبط عضوياً بطبقة اجتماعية، أو مؤسسة ويعبّر عن ماهيتها ومصالحها وآمالها، ويصوغ وعيها. وإذا كان أفراد المجتمع جميعاً مثقفين (أي أن لهم أفكارهم وآراءهم ومنظومة قيمهم وتقاليدهم) فإن قلة من هؤلاء يمارسون وظيفة المثقف في المجتمع. وهؤلاء هم المفكرون والمبدعون في شتى مجالات العلوم والفنون والمعارف والآداب. ويستطيعون التأثير على الناس. وهذا ما قاد غرامشي إلى بلورة تصور جديد عن الحزب الثوري الذي يكون أعضاؤه مجموعة ناشطة من المثقفين العضويين المرتبطين بقوة بقضايا المجتمع، لاسيما البروليتاريا والفلاحين.

وميّز غرامشي بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني. فالمجتمع السياسي بنظره يضم الحكومة والقوات المسلحة والشرطة والمؤسسات التشريعية والقضائية، فيما المجتمع المدني يُمثل بالاقتصاد وأفـراد المجتمع، ومؤسساته المستقلة عن الحكومة.

حافظت أفكار ومفاهيم كثيرة حقنها غرامشي في نسيج الفكر الماركسي على طراوتها وفاعليتها حتى بعد أكثر من سبعين سنة على وفاته، وما زالت مؤثرة ويجري تداولها والاستشهاد بها ومناقشتها، اليوم، في حقول معرفية عديدة، منها علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع والنقد الثقافي والأنثربولوجيا.

كان المفكر الآخر الذي شغل الفضاء الفكري الماركسي الأوروبـي في النصف الأول من القرن العشرين هو جورج لوكاش (١٨٨٥ . ١٩٧١). ولد في بودابست/ عاصمة المجر. التحق بحركات اشتراكية مختلفة ثم انضم للحزب الشيوعي. عاش شطراً من شبابه في ألمانيا، ومن ثم في موسكو. عُيّن لمدة وجيزة وزيراً للثقافة في حكومة ايمري ناجي، في هنغاريا/ المجر بعد ثورة ١٩٥٦ على الرئيس راكوشي، والتي سحقتها قوات حلف وارشو، لكنه نجا من الإعدام.

عُرف لوكاش بأنه مؤسس نظرية علم الجمال الماركسي، وأحد أهم المنظّرين في حقل الأدب. وكتاباته عن الواقعية الأوروبية وتوماس مان والرواية التاريخية تضعه في مقدمة أعلام النقد الروائي في القرن العشرين. غير أن هذا جانب واحد فقط من مساهماته الفكرية. فلوكاش فيلسوف لـه أهميته وتـأثيره على كثر من المفكرين والفلاسفة ، من مجايليه ومن الأجـيـال اللاحقة منهم هيدجر وكـارل مانهايم وأقطاب مدرسة فرانكفورت (أشهرهم ماكس هوركهايمر وتيودور اودورنو وهربرت ماركوز) وبصماته واضحة على كتابات لوسيان غولدمان وجان بول سارتر.. أثرى الفكر الماركسي بتناوله المفاهيم والإشكاليات النظرية عبر منظور يختلف عن منظور الماركسيين التقليديين، ولـذا وُصم بالتحريفية. ففي مقابل التأويل الستاليني . الجدانوفي أعطى تأويلات مغايرة ورسّخ قواعد نظرية ماركسية أخرى متأثرة بفلسفات (الـذات) الغربية مستلهماً فيها، لا ماركس وحده، وإنما هيجل أيضاً. معيداً الاعتبار للروح الجدلية في الماركسية. ولعل كتابه (التاريخ والوعي الطبقي) أكثر أعماله نضجاً وسعة أفق من هذه الناحية. وفيه يقول؛ "إن الماركسية الأصلية لا تعني تسليماً أعمى بنتائج بحث ماركس، ولا تعني الإيمان بنظرية أو بأخرى ولا تأويل كتاب مقدّس. إن الأصالة نسبة إلى الماركسية ترجع، على نقيض ذلك، إلى المنهج بشكل حصري".

جعله هذا، في نظر الشيوعيين الأرثوذكسيين، ماركسياً لم تتم بلشفته كما ينبغي، "وهرطوقا على الصعيد الفلسفي، بمعنى أنه كان يسارياً هيجلياً وليس مادياً". كما يقول جورج لختهايم مؤلف كتاب (جورج لوكاش).

يضيف لختهايم؛ "إن نوع الماركسية التي ادّعاها لنفسه لها نغمة نخبوية. إن صيغة لوكاش برفعها (الطليعة) إلى مصاف الحقيقة التاريخية المستقلة التي وحدها تضم الوعي الحقيقي للثورة اللينينية قد أصبحت غير قابلة للاتفاق مع تمجيد روزا لوكسمبورغ الرومانسي للحركة الجماهيرية". ففي كتاب (التاريخ والوعي الطبقي) حاول حل تلك المعضلة الكامنة في العلاقة بين النظرية والتطبيق. وقد رأى أن وعي البروليتاريا بالقوانين التي تحكمها وتحكم مسيرتها هو فاعل تاريخي، والتاريخ لا يتحرك إلا عبر التفاعل بين الذات والموضوع، ويغدو الـوعـي داخـل الـتـاريـخ، لا خـارجـه. وبـذا يـؤدي وعي البروليتاريا بواقعها حيث حولتها الرأسمالية إلى بضاعة، إلى أن يمثل المبدأ السالب الذي يرفض هذا الواقع وشروطه، ليتحرر من التشيؤ.

إن جدلية الممارسة، بحسب لوكاش، تنشأ من عمليات الأخذ والرد بين الذات والموضوع.. بين الوعي والوجود من غير أن نعطي للموضوع أولوية على الذات، وللوجود أولوية على الوعي. وهنا لم يقل مع هيجل أن العقل هو الذي يحرّك التاريخ، بل أن التاريخ هو نتاج جدل الذات والموضوع، وجـدل الوعي والـوجـود والتاريخ. وهذه الجدلية تضع الحرية داخل الضرورة، لا في تضاد معها. شكك لوكاش بفهم أنجلس لكانط وهيجل، ووصف مادية عصر التنوير بأنها "الشكل الإيديولوجي للثورة البرجوازية". ولم يقتنع بأن للماركسية صلة بالعلوم الطبيعية مزيحاً بذلك "حجر الزاوية في البناء اللينيني". وطالما كانت المادة أو (الطبيعة) في نظر أنجلس تسبق الروح. أو "أن الروح فيض أو انبثاق من المادة. ومثل هذه التأكيدات لا يمكن إثباتها أو دحضها". فإن المادية عندئذ لن تعود نظرية للمعرفة "بل تصبح نظرية غيبية عن العالم".

تجلت أصـالـة أفـكـار لـوكـاش من خـلال فهمه جوهر الديالكتيك الهيجلي ويلخّص لختهايم وجهة نظر لوكاش من هـذه الـزاويـة بـالـقـول؛ "أن المـاديـة والـروحـيـة هما أطروحة ونقيضها، وذلك لخلاف يعود إلى عدم القدرة على تخطي الانفصام بين الـذات والموضـوع. والحل لا يكون في إيـثـار الـواحـدة دون الأخـرى، بل يتجاوز موضع الخـلاف، وهـذا يتم بالسير على خطى ماركس في معالجة التطبيق على أساس أنه الاتحاد المادي بين الفكر والواقع". فلوكاش أحيا فكرة هيجل حول تطابق الكينونة والوعي في النهاية. وهنا يكون "من المعقول أن يرد عنصر الوعي الذاتي إلى الطبيعة". وهـذا نوع من التخلي عن المادية بالمعنى الضيق الـذي روّج له الماركسيون اللينينيون الذين هاجموا لوكاش لأنه أدخل "مفاهيم مثالية إلى الماركسيةٍ" بحسب وجهة نظرهم.

استخدم مفهوم التشيؤ بدلاً من مفهوم الاستلاب. وعادٍ إلى كتابات ماركس الشاب ليمنح الوعي الطبقي دوراً فعالاً في التأثير على الوضع التاريخي وتحويله، وكيف يمكن في ظل شروط وظروف معينة أن تكتسب "فيها الـثورة الفكرية صفات القوة المادية". واعترض على واحد من أكثر الأفكار الماركسية رواجـاً، والقائل بأن الطبقة البروليتارية في تحريرها لنفسها ستحرر البشرية جميعاً، على الرغم من ادعائه بأن "الثورة البروليتارية هي مفتاح لفك لغز التاريخ". وكان ديدنه الوصول إلى "تحليل ماركسي يلتزم بالحقائق، ولا يشجب التراث الهيجلي باسم العلم. وفي ذلك الوقت من عشرينات القرن العشرين حين نشر كتابه (التاريخ والوعي الطبقي/ ١٩٢٤) كان تيار من اللاعقلانية يسود أوروبـا ممهداً لصعود الفاشية.. ويقول لختهايم "ولو ان لوكاش تمتع بشخصية قوية تدعم موقفه عوضا عن التزامه بالسكوت، ومن ثم تنكره لآرائه الأولى في ما بعد، فلربما استطاع أن يبني سداً في وجه الفيضان المتدفق من اللاعقلانية".

عاش لوكاش في ظل ظروف سياسية ملتبسة، صعبة، واضطر أحياناً ألا يكون نفسه، بطرحه لأفكار مثيرة للجدل، لا تتساوق مع نظرته العلمية الدقيقة.. "لقد ارتـدى لوكاش أقنعة كثيرة أثـنـاء حياته ومثّل أدوار خداع مدروسة ومجاملة وتحقير ذات لافتة للنظر حتى بالنسبة إلى مقاييس بيئته المختارة، ولكن عبر ذلك كله لم يذهب بعيداً أو طويلاً عن هدفه الأولي: نظرية علم جمال تقدّم إلى العالم الجديد للاشتراكية الأوروبية الشرقية ما قدمته المثالية الألمانية بشكل خاص إلى العالم البرجوازي". هذا ما يقوله مؤلف كتاب (جورج لوكاش) جورج لختهايم.

كان لوكاش يخضع إلى ضغوطات عديدة ترتبط بحقبة الطغيان الستاليني ومتطلبات الحرب البـاردة، جعلته ينحدر، في فـتـرات مختلفة، إلى نـوع من السكولائية الجـامـدة، والمستوى الجدانـوفي. وغـالـى أحيانـاً في تمجيده لينين وستالين، على الرغم من أنه سيقول بعد شجب خروشوف لستالين في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي؛ "لابد من إخضاع دوغمائية ستالين ودوغمائية العهد الستاليني لأشد النقد قساوة" من غير إنكار "إنجازات ستالين الإيجابية كما يؤكد.

وفي مؤلفه (تحطيم العقل) عمل على نقد التراث الفلسفي الألماني، لاسيما الجانب اللاعقلاني فيه، والذي قاد، في النهاية، إلى النازية وما خلّفته من مآس وويلات.

كان لوكاش يبحث في فحوى السؤال؛ إذا كانت الحقيقة يمكن الوصول إليها بوساطة العقل، فلماذا وكيف سادت اللاعقلانية؟ "ولماذا يكون لها في بعض الأحيان قوة لا تربك المفكرين الأفراد فحسب، بل ثقافات بأكملها؟" وقد سعى لربط الصراع بين العقلانية واللاعقلانية بالصراع الطبقي. وتجد هذه الفكرة صعوبات جمة وتواجه أسئلة حاسمة، منها: لماذا لم تتحول أوروبـا البرجوازية كلها إلى الفاشية؟ وما علاقة محن ألمانيا بموقفها من الثورة الفرنسية؟. ويعد لختهايم كتاب لوكاش (تحطيم العقل) عملاً فاشلاً لأنه لم يحقق الهدف الذي حدده مؤلفه له.

أســئـلـة الحــداثـــة وإشــكــالــيــات بــنــاء الـــدولـــة الــعــراقــيــة

> تعيش الدولة العراقية الجديدة الكثير من الرهانات والتحديات، خاصة ما يتعلق بهوية هذه الدولة، وطبيعة علائقها بمشروع التحديث، وبناء النموذج المدني، إذ تعيش هذه الحداثة اغترابها عن الكثير من يوميات الدولة السائدة، ومنها ما يتعلق بالاغتراب الثقافي في البيئة العراقية الصراعية والذي ظل خاضعا لتوصيفات شتى، والى جدالات تتصارع في ما بينها حول إشكاليات الهوية والحداثة والجماعات والمعنى المدني الحاضن للدولة. فضلا عما يتعلق بإعادة توصيف مؤسسات هذه الدولة على ما وفق ما تقتضيه شروط وسياقات الحداثة التي تتطلب أساساً وجود المؤسسات الحقيقية، ومنظومة من الحقوق والحريات والقوة الاقتصادية الكافلة، فضلا عن الجهود والإمكانات الفاعلة والتنميات البشرية التي تؤمّن بنيات التربية والتعليم والحقوق والخدمات والاتصالات والاقتصاد الحر..

علي حسن الفواز

الحداثـة في هـذا السياق ستبقى مشروع سـؤال دائـم، وإغـواء دائم..هذا السؤال الغاوي هو الذي يمنحها القدرة على الإثارة، مثلما يمنحها الاستعداد لتجاوز ذاتها ونصها وحتى تاريخها، وربما يجعلها في نوبة دائمة من عمليات فحص لسياساتها وأوهامها التي كثيرا ما أنتجت لنا أزمات وحروبا وهزائم. فكيف يمكن لنا أن نواجه مشروع الحداثة دونما أسئلة؟ وكيف لنا أن نمنحها قدرة دائمة على إنتاج فعل التجاوز الذي نعاني مشاكله العميقة؟

مشروع الحداثة في سياقه التوصيفي هو مشروع التنوير ذاته الذي ينبغي ان يقوم على تأصيل قيم الحرية والعدل والحق والعقل في النظام الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للدولة، وتأمين موجهاتها القانونية والمادية، وتعزيز الوعي بجدوى صناعة ظاهرتها السياسية والحقوقية التي غابت الكثير من مظاهرها منذ عقود، ولم تترك لنا سوى شكل غائم لدولة شائهة، عاطلة، دولة تعودت من مراحلها الجمهورية على استيعاب الثوار والانقلابيين ومنظري الايدولوجيا دائما، لكنها لا تقبل بالبناة العضويين ورواد الفعاليات المدنية، دولة تتمدد أفقيا دونما حدود، لكنها ترفض ان تصنع وعيها العمودي الـذي يراقب وينظم ويسيطر على أزمات الفراغ في الأمكنة والفكر والعلاقات.

مشروع الحداثة بمعناه المؤسساتي أيضاً هو الغائب عن الكثير من إجراءاتنا، والحاضر بهوس في تجاذبات النظرية الأدبية ومناهج البحث والدرس، مثلما هو العاطل أيضاً عنٍ فعاليات تنمية الحراك السياسي وشروطه، مثلما هو أيضاً المثير للشكوك عند البعض، وكأن مفهوم هذه الحداثة قرين بأزمة التاريخ القديم الذي ظل يتهم المجددين بالتجديف، والابـتـداع، وبـالـتـالي الـوقـوع في فخاخ الفتنة والزندقة والكفر.. فكيف نقرأ خطاب الحداثة وشروطها، خاصة في ما ينحني على مشروع الدولة الجديدة الذي يواجه سلسلة من التحديات التاريخية، بدءا من تحديات الهوية، وأقصد هنا الهويات التي تخص مكونات المجتمع العراقي الطائفية والدينية والقومية المتصارعة بصمت منذ قرون، والخاضعة الى توصيفات قسرية لسلطة المركز والجماعة والطائفة، وانتهاءً بتحديات السلطة القهرية التي صنعت لها خلال عقود أنماطاً من الحاكميات المرعبة، والمؤسسات الامنية الشرسة، والتي جمعت تحت مهيمنها القوة والثروة والإعلام، وهو ما جعلها اخطر نمط للسلطة/المركز القائمة على اساس(طرد) الاخرين من نسقها، او اجبارهم للخضوع الى استيهامات قوة الرمز والايديولوجيا والعسكر والعائلة، وبالتالي اصطناع اشكال ايهامية مقابلة للمؤسسات والهويات العمومية التي تتماهى مع ادلجة السلطة، ومع مشروع حداثتها المصطنع والقائم على اساس(علمنة)قاصرة، تقوم من خلال عزل انماط الخطاب الديني المغاير، والايهام بالصراع مع الاصوليات، مقابل اعتماد اشكال من الثقافات السرية التي تتماهى مع(نمط طائفي)معين، تضع في خدمته الكثير من الوسائل والامكانات والمدارس ونظم التعليم الابتدائي والفقهي، وبما يجعل هذا النمط جزءا من السلطة ذاته، وجزءا من مشروعها.

مشروع الدولة..التوصيف والظاهر

توصيف الدولة هو اول المظاهر التي تعنى بسيرورة هذه الدولة، لان مفهوم السيرورة يضع السياق الحاضن للقوى الاجتماعية التي تمثل مجتمع الدولة السياسي، وطبيعة علائقها بالقوى المجتمعية التي تشكل ظاهرة الامة، خاصة وان العراق بالمعنى السياسي دولة حديثة، حاولت ان تؤصل مفهوم الأمة منذ مراحل نشأتها الاولى عام ١٩٢١، والتي وضع اسسها الملك فيصل الاول، لكن تعقيدات الجماعات العراقية، والطبيعة المعقدة للصراعات مع السلطة التي تمردت على النسق المتخيل للدولة الفيصلية هو الذي قاد مجتمعها السياسي للتمترس خلف نخب معينة، وخلف نمط من العسكرتاريا، وكذلك خلف نمط من القوى التي ورثـت التعقيدات الصراعية الطائفية للدولة العثمانية، والتي تحولت في ما بعد الى عوامل تعويق إنتاج ظاهرة الدولة الحديثة، والانخراط في صراعات وجبهات بدأت مع الصراع العسكري والسياسي بين جعفر العسكري وبكر صدقي، وانتهاء بالصراع بين فريقي الوصي وفريق القوى القومية التي قادها الكيلاني ومجموعة الضباط المعادين للانكليز والقريبين من الالمان، والـذي انتهى بفشل حركة مايس ١٩٤١، وهو الذي قاد في مراحل لاحقة الى إنتاج قوى سياسية وحزبية رايديكالية انتهت هي الأخرى الى إنتاج المزيد من الصراعات مع الدولة التي حاولت الدفاع عن نفسها من خلالٍ إقامة المزيد من الاتفاقيات مع انكلترا، والتي أدّت أيضاً الى مزيد من الصراعات والانتفاضات الشعبية التي أسقطت معاهدة بـورت سموث، ونـجـاح القوى اليسارية لفرض وجودها في البرلمان العراقي مع انتخابات عام ١٩٥٤ والتي دعت الملك والأمير عبد الإله الى إسقاط الحكومة، وهو ما ادّى أيضاً الى نشوء جماعة(الضباط الأحرار)الذين أنهوا أول ظاهرة عراقية للدولة المدنية، وبدء مرحلة الجمهوريات العسكرية التي اصطنع تراكمها المزيد من الديكتاتوريات التي قادت الدولة العراقية الى الكارثة.

من هنا نجد أهمية التعريف بظاهرة الدولة كسياق حاضن للمعنى الاجتماعي والسياسي، واهمية قـراءة شروطها على أساس إنها نموذج لـ (الدولة المدنية)، وعلى أساس ان صناعة هذه الدولة هي الأساس في صناعة المستقبل، أي بناء المؤسسات التي تمهد لمشروع تحديث البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا التحديث لا يأتي من فراغ، لأنـه قرين بإنتاج مجموع كبيرة من الظواهر التي تخص الجماعات والمجتمع، وتخص النظام الاجتماعي والنظام السياسي على اساس تعزيز التنوع والتعدد وعلى اساس الوعي بالحريات المدنية، والحقوق العامة والخاصة، وتعزيز فاعلية الدستور العراقي باعتباره القانون العام الذي يؤطر الحراك الاجتماعي والسياسي والحقوقي، إذ أن هذا الإطار هو الاساس الاجرائي لما يمكن ان نسميه بـ (حداثة الدولة)أي قيام المؤسسات وقيام المشروع الوطني، وانخراط القوى المتعددة والمتنوعة في منظومته، فضلا عن تهيئة الاجتماع الوطني لتقبل افكار العقلانية والتنوير والتحديث والإصلاح، على جميع المستويات، بما فيها الإصلاح الاجتماعي والسياسي والقانوني والتعليمي، وصولا الى(الإصلاح الديني) الذي يقوم على أساس نبذ أفكار التطرف والغلو والتكفير، وإعطاء الحق للجماعات في إقامة طقوسها الدينية دون أكراه.

ما احسبه ان اتيان وعي الحداثة يعني التوافر على هذه الشروط التي ترتبط بوعي الزمن ووعي العمل والبناء والـوقـوف عند مشكلاتها دونـمـا حساسيات او غيابات، فالبعض قد يقول ومن منطلقات ما أشاعته بعض الفلسفات العدمية، من ان الحداثة كنظام فلسفي للفكر المعاصر قد انتهت وان العالم يعيش في مرحلة ما بعدها، وان الفكر الغربي يسوّق للآخرين كل النظريات والمفاهيم والأسئلة والنظريات والطروحات والسياسيات التي ارتبطت بحداثاته القديمة والتي أصبحت فائضة عن حاجة متاحفه.. فهل هذا الطرح صحيح ودقيق؟ وهل الحداثة اصبحت فعلا عبئا على الحداثة ذاتها؟ وكيف هو الطريق الى ما بعد الحداثة دون وجود المؤسسات والاطر الحقيقية التي تضمن تقبل مثل هذه الافكار المنتجة في مجتمع اكثر تعقيدا او اكثر توافرا على منظومات ثقافية واقتصادية يمكن ان تتقبل التحولات دون تعقيد؟

هذا المفهوم الغامض والملتبس والإشكالي ظل دائما مثارا للكثير من الجدل والصراع، وأحيانا الشكوك بجدوى هذه الحداثة التي مازال البعض يقف مرتابا امام اسئلتها.

في هذا السياق تبقى الحاجة الى فتح ملف او ربما ملفات لمعاينة مشكلات الحداثة وازمـات انعكاسها على مفهوم الـدولـة، والحقوق والهوية، فضلا عن التعاطي مع كل مشكلات حياتنا السياسية والثقافية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية والمناهجية وغيرها، لاننا نؤمن بان الحداثة مازالت كمفهوم واجـراءات قابلة للتداول، رغم ان هذه الحداثة كما يقول الفيلسوف النقدي هابرماز تظل مشروعا غير مكتمل، الا ان ظاهرها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي يكفل أشكالاً قابلة للتداول الخاضع الى توصيفات عالمية، ومنها ما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية والاتفاقيات الدولية والانتماء الى التجمعات والمنظمات الاقتصادية العالمية، والتي تفرض شروطها على اسواقنا ومصالحنا وانماط استهلاكنا وثقافاتنا التي مازالت رغم كل الصراعات تعيش عقدة التماهي مع اشكالات المناهج الغربية والنظريات الأدبية في أوروبا وأميركا.

هذا المعطى المكرس في الظاهر السياسي والثقافي، يضعنا امام ازمة الدولة ذاتها كمؤسسات مغلقة، وخاضعة الى مهيمنات الجماعات والإيديولوجيات والرمزيات، والذي ادّى تفككها تحت عامل الاحتلال الخارجي القهري عام ٢٠٠٣ الى تفكك هذه المهيمنات والجماعات الى جماعات اكثر قسوة وتطرفا احيانا، اكدت من جانب ان حروب القديمة وصراعاتها ومشكلاتها السياسية والثقافية لا علاقة لها بالحداثة التي يقول عنها بعض مثقفي الغرب بأنها لم تعد صالحة للاستهلاك الغربي لانها قرينة الحروب الكونية وازمات الكساد العالمي والبطالة والحـروب الـبـاردة وصناعات الارهـاب والعنف الدوليين، ومـن جـانـب آخـر فانـهـا استدعت اعـادة النظر بمؤسسة الـدولـة، وبـمـا يعزز الحاجة الى إنتاج ظاهرتها الانسانية القابلة للوجود دون صراعات او تهديدات.

هذه الملفات المقترحة ينبغي ان تكون بعيدة عن التأثر بأزمة الحداثة الغربية ومشكلات قراءتها النظرية والاجرائية والنظر الى تعقيداتها الاخلاقية، وتشوه ترجماتها وأزمات مناهجها وصـراع مدارسها، والتي تحولت عند العديد من دارسينا الى مشكلة إشاعة مفاهيم وافكار وشكوك وانماط وعي مفخخة، وبالطريقة التي فتحت شهية هذا(العديد) على ترجمات واسعة الطيف لشجون وشؤون ثقافية معقدة لاتلامس اسئلة وعينا الذي مازال يقف مندحرا ومأزوما امام مشكلات تنتمي في جوهرها الى مرحلة ما قبل الحداثة. فكيف نطمئن لحديث الـ (ما بعد) ونحن لم نتجاوز الـ (ما قبل)..

كما ان هذه الثنائية ليست مجالا لإنتاج رعب آخر في هذه المرحلة، او الـدعـوة للتخلي عن ادامـة الفاعلية الثقافية والتعاطي مع أسئلة الـوعـي الـولـود دائـمـا، بقدر ما تعني الاندفاع الى ضرورة اعادة فحص المشهد العمومي المليء بالأزمات والعقد، والتعاطي مع مشكلاته بوعي اجرائي اكثر منه وعيا نظريا، اذ ان غيابِ الوعي الاجرائي وعطالة برامجه ومشاريعه اسهمت الى حدّ كبير في إشاعة(تضخمات) غير مسيطر للوعي النظري الذي صنع لنا اوهاما كبيرة..

اسئلة الحداثة رغم كل ما يحوطها من ضبابية مفهومية باتت ملحة في لحظتنا المعاصرة، لانها لم تعد معنيةٍ بإنتاج أسئلة ثقافية خالصة، بقدر ما اضحت معنية أيضاً بإنتاجٍ اسئلة تلامس جوهر مشكلاتنا العميقة والظاهرة، بدءاً من مشكلة صناعة الدولة، وإنتاج المفاهيم الإنسانية التي ارتبطت بمشروع الحداثة منذ اكثر من مئتين وخمسين سنة، والخاصة بمشكلات الحرية والديمقراطية والعدل والحق والهوية والاستقلال وغيرها، وانتهاء بمشكلات الانسان ذاته الذي يواجه اخطار وازمات وحروب ما قبل الحداثة تماما..

الحداثة..التاريخ وحاجة الأسئلة

إذا كنا نعتقد اننا بحاجة الى جرعات عالية من الصراحة، مثلما نحن بحاجة الى تمثل(صدمة الحداثة) ذاتها التي عاشها الغرب منذ قرون، فاننا أيضاً بحاجة الى وعي اشكالات هـذه الحـداثـة تـاريخيا، ووعـي ازماتها، وازمـات نخبها، وانماط بعض ثقافاتها الاستعمارية والتبشيرية، مقابل الحاجة الى وعي الضرورات التاريخية للحداثة التي اسهمت في انتاج ظواهر صدمات عالم ما بعد الثورات الرومانسية، وعوالم ما بعد الهيمنات الكنائسية، فضلا عن إسهامها في نشوء المدن الثقافية والمدن السياسية والمدن الصناعية. واذا كانت الحروب الكونية قد حدثت تحت عناوين هذه الحداثة، فهذا يؤكد عدم بـراءة العقل الغربي من ارتكاب الكثير من الجرائم باسم هذه الحداثة، والمزيد من الحروب دفاعا عن استحقاقات الحداثة الغربية التي أنتجت مركزا كونيا قويا، مركزا للسيطرة عبر الثورة الصناعية وما تبعها من رحلات للتبشير بقوة هذا المركز الذي جلب للأسواق الغربية الملايين من القوى العاملة الرخيصة، وفرض تجارة الرقيق الأسود والأبيض، وكذلك المـواد الخـام السهلة الى مصانع المركز ذاته. وكذلك انتجت مركزا سياسيا قويا تلاقحت توجهاته وخطاباته مع المركز الاقتصادي التي تمظهرت تحت واجهاته الدول القومية والنزعات القومية المتنافسة والتي أسهمت في إنتاج الحروب والأزمات والكسادات الاقتصادية.. كما انها بالمقابل اسهمت في التسويق لمراكز دينية وثقافية، اذ ان هذه النزعات تمثلت عبر نشوء سياسات وتوجهات وانماط من الثقافات التي جسدها هيغل وارنست رينان وكانط وبسمارك ونابليون وبروسبير وستالين وتشرشل وغيرهم..

أزمـة وعـي الحـداثـة هـو ازمـة أسئلتها وانساقها، وازمـة مـصـادرهـا. واعـتـقـد ان غـيـاب الأسـئـلـة الـتـي تخص هذه الازمـات ومـا يقترن بها كشفرات، هـو الـذي يرتبط بكل تعقيدات غياب المؤسسات التي يمكن ان تضع هذه الاسئلة في سياقها التوليدي الصحيح بـدءا من البنى التربوية والتعليمية وانـمـاط دروسـهـا التقليدية وصـولا الى ازمة المؤسسات الجامعية التي مازالت لحدّ الان بنيات مغلقة على ازمات درس التاريخ القديم، وانتهاء بمؤسسات الدولة المعاصرة ومشكلاتها في تشوه ملامح التنمية الاقتصادية والثقافية وغياب البناء الدستوري والمؤسساتي، فضلا عن أزمتها بإعادة أنتاج القوى الفاعلة في البنيات الاجتماعية والاقتصادية.

هذا الغياب العام هو جوهر مايتعلق بغياب الحداثة كإجراءات وانساق حاضنة للتطور، واجد ان ملامسة فكرة الغياب بكل تداعياته التدميرية على العقل العراقي والسياسية والتنمية هو مقدمة البحث عن حداثات مناسبة، حداثات تعيد إنتاج الفعل الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ليكون جزءا من مشروع بنائي كامل يشمل الانسان والمؤسسة، اذ لا توجد حداثـة لـلإنسان فقط بـدون المؤسسة ولا توجد حداثة للمؤسسة بعيدا عن الإنسان..

قراءة وانـتـاج مشكلات الحداثـة يعني قـراءة كل اشكالات انساننا المعاصر ووازماته التي تنتمي الى مرحلة ما قبل الحداثة، فالارهاب والعنف هو جـزء من هـذا الماقبل الذي يضعنا عند قهرية العصاب وهيمنة فكرة السيطرة على الاخر، وليست قرينة بالكامل بالسياسات الاستعمارية وهيمنة الـغـرب كما يدعي البعض، والتخلف والجهل وانخفاض مستوى التعليم وسوء الادارة وهيمنة السحر وفتاوى الموت والانتحار هي جزء من هذا الماقبل ايضا بكل ما يعنية من فشل وعجز في انتاج الدولة المعاصرة، الدولة المثقفة، العادلة التي يمكن ان تصنع شروطا افضل لحيوات مواطنيها، وليست نتيجة عائمة لسياسات عالمية فقط..

الحاجة الى الدرس الحداثوي اصبحت حاجة قارّة وفاعلة، مثلما هي ضرورية وعميقة الاثر لانها منطلق اجرائي و شرط اساسي لانتاج الدولة الحاضنة لفاعليات الحداثة، ومواجهة كل اخطار ما قبلها. ولعلي ادعو في هذا السياق الجهات الرسمية للتعاطي مع مشروع الحداثة ليست بصفته خطابا في الثقافة كما هو سائد ومستهلك بل انه سلسلة من الخطابات والاجـراءات التي تحتاج الى ابطال ارضيين، والى صناعة وعي عالية تواجه كل ازمات التخلف والسحر والعطالة..

آراء وأفكـــار ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية: ١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة . ٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة. ٣. لا تزيد المادة على ٧٠٠ كلمة. E-mail:i.ideas@yahoo.com